مَعَالِمُ مَدْرَسَةِ أَهْلِ البَيْتِ التَّفسِيرِيَّةِ

أ.د. علي رمضان الأوسي
الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية
مسؤول القسم العربي في المركز الاسلامي
لندن – المملكة المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

المقدمة:

مرّ التفسير القرآني بمراحل عديدة وقد ظهرت مدارس ومذاهب وطرق عدة لقراءة النص القرآني وبيانه وتفسيره، ناهيك عن نشأته الأولى التي قادها رسول الانسانية والمعلّم الأوّل محمد بن عبد الله ﷺ، فكان الشارح والمبيّن عن الله سبحانه قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٤].

وقد لعب النص القرآني دوراً عظيماً في حماية المجتمع الاسلامي وفي بناء الانسان المسلم، لكن اختلاف طريقة القراءة والتعاطي مع النص القرآني أورث ذلك أفهاماً متباينة وأذواقاً متعددة فكانت مناهج مذمومة في تفسير النص القرآني، الى جانب الجهود الكثيرة التي بذلها المسلمون في هذا المجال، ولحماية النص القرآني في مجال استنطاقه وتفسيره، وبيانه تصدى أهل البيت عليهم السلام لهذه العملية الكبرى فورد عنهم عليهم السلام الكثير جداً من الروايات في تفسير القرآن ولعل المسانيد المتعددة عن ائمة أهل البيت عليهم السلام وما تضمنته الكتب الأربعة وغيرها تحكي عن هذا الدور الكبير لهم عليهم السلام في تفسير

القرآن الكريم، وما على الباحثين إلا ان يتلمسوا المعالم والأبعاد لهذه المدرسة التفسيرية باستقراء ما ورثناه عنهم عليهم السلام كونهم عدل القرآن الكريم كما ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

وفي هذه الدراسة نعرض لأبرز هذه المعالم والابعاد في هذه المدرسة.

من هم أهل البيت عليهم السلام:

هل حقاً هناك مدرسة للتفسير محددة المعالم يمكن نسبتها الى أهل البيت عليهم السلام؟. كيف نشأ التفسير في هذه المدرسة؟. وهل تطور الى مناهج تفسيرية، ام جمد على الرواية التاريخية المسندة الى المعصومين؟. وهل هناك تطبيقات واضحة للقواعد وأساليب التفسير عند ائمة أهل البيت عليهم السلام؟. ثم اين توضع هذه المدرسة التفسيرية من جهود المفسرين الآخرين؟. هذه الاسئلة وغيرها التي تبحث في معرفة هذا اللون من التفسير، سنتناولها في هذه السلسلة من الدروس القرآنية.

كان الرسول محمد صلى الله عليه وآله هو المعلم الأول لبيان آيات القرآن وتعليمه للناس ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[سورة الجمعة: ٢]. وبناء على ذلك فقد أخذ المسلمون الأوائل تلك البيانات من سنة الرسول صلى الله عليه وآله في مجال التفسير القرآني، ولكن على اختلاف نسبة هذا التحمل عن الرسول صلى الله عليه وآله، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، هو أول الصحابة جميعهم تميز أخذه عن الرسول صلى الله عليه وآله بالوفرة والشمولية والدراية، كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه الاتقان، حيث يقول: أما الخلفاء فأكثر من روي عنه الامام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، والرواية عن (الخلفاء) الثلاثة نزرة جداً[2]. ثم ينقل السيوطي الرواية (وقد روى معمر عن وهب بن عبدالله عن أبي الطفيل قال: شهدتُ

(١) ينابيع المودة لذوي القرى، سليمان بن ابراهيم القندوزي، الطبعة الأولى، ١/ ٩٩.

(٢) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة، ص٢١١.

علياً يخطب وهو يقول: سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل).

ويضيف السيوطي فيقول: وقد ورد عن ابن عباس ما لا يُحصى كثرة وفيه روايات وطرق مختلفة. وتجدر الأشارة هنا الى ان ابن عباس أخذ الكثير عن الامام علي عليه السلام رائد هذه المدرسة التفسيرية، وهذا يكشف عن عمق وواقعية وشمولية هذه المدرسة لأهل البيت والتي يمكن ان نقول ان أمير المؤمنين علي عليه السلام قد أسس خطواتها الأولى من خلال تصديه للمرجعية الفكرية لهذه الأمة التي هي الامتداد الطبيعي لعمل الرسول صلى الله عليه وآله في بناء الأمة ومن بعده ا ئمة الهدى من اهل البيت عليهم السلام.

إنّ هذا الارث العظيم في تفسير القرآن الكريم حملته الأمة الاسلامية في مختلف اطوار حياتها وتعرض كغيره للكثير من عوامل التأثير الخارجي، وأزاء ذلك انطلق الائمة من أهل البيت عليهم السلام لوضع قواعد وضوابط لمعرفة هذا الارث المقدس والمحافظة عليه رغم كل اعمال التزوير والتحريف التي مرّ بها التاريخ. وتجدر الاشارة هنا الى ان المسلمين بشكل عام كان لهم اهتمام واضح في كتاب الله، لكن المتطلع والمتابع لمرجعية أهل البيت عليهم السلام وأدوارهم المختلفة في ضوء فترات حياتهم والظروف التي أحاطت بهم يقف على خصوصية التفسير المروي عن هذه المدرسة المباركة، والتي استفاد منها المسلمون على طول تاريخ المسيرة الاسلامية رغم عوامل التضليل والاحتراب السياسي ضد أهل البيت عليهم السلام طيلة القرون الماضية.

وقبل الدخول في تحليل مرتكزات التفسير في هذه المدرسة الرائدة، لابد من التذكير بالمكانة الدينية والقيادية والرعاية الالهية التي حظي بها أقطاب هذه المدرسة ومؤسسوها من المعصومين الكرام عليهم السلام، والتي امتدت باقطابها المعصومين الى ثلاثمائة سنة أعطت الكثير، وكانت بمثابة الاعمدة الناطقة

التي حفظت للأمة مسيرتها ويمكن النظر لهذه المكانة من خلال جملة من النصوص التي اختص بها الائمةعليهم السلام، ونكتفي باختصارها والاشارة إليها ومن ثم يحق للقارئ ان يعرف مدى عمق وأهمية ومكانة هذه السلسلة الذهبية من أهل بيت العصمة وهم الائمة الاثنا عشرعليهم السلام من آل الرسول، أولهم أمير المؤمنين علي بن ابي طالب وآخرهم قائم آل محمد المهدي الموعد (عجل الله فرجه الشريف) ومن هذه النصوص:

١. حديث الثقلين، قولهصلى الله عليه وآله: (اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٣].

٢. قولهصلى الله عليه وآله: (علي مع القرآن والقرآن مع علي)[٤].

٣. قولهصلى الله عليه وآله: (رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار)[٥].

٤. قولهصلى الله عليه وآله: (النجوم جعلت أماناً لأهل السماء، وان أهل بيتي أمان لأمتي)[٦].

٥. قولهصلى الله عليه وآله: (مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق)[٧].

٦. قولهصلى الله عليه وآله: (أنا مدينة العلم وعليّ بابها)[٨].

٧. قولهصلى الله عليه وآله لعليعليه السلام: (أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي)[٩].

وقد روت تلك النصوص كتب أهل السنة الى جانب كتب الرواية عند الامامية، وعليه فهؤلاء الذين يصفهم رسول اللهصلى الله عليه وآله بهذه الصفات لابد ان ينتظرهم دور مهم وحساس في بناء

(٣) كتاب الغدير، عبد الحسين الاميني، الطبعة الرابعة، ١/ ١٧.
(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، ٩/ ١٣٤.
(٥) الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى الترمذي، الطبعة الثانية، ٥/ ٢٩٧، رقم الحديث ٣٧٩٨.
(٦) مجمع الزوائد، للهيثمي، ٩/ ١٧٤.
(٧) المستدرك على الصحيحين، الحاكم ابو عبد الله النيسابوري، ٢/ ٣٤٣.
(٨) أمالي الصدوق، ابن بابويه القمي، الطبعة الأولى، ص: ٦٥٥، رقم الحديث: ٨٩١.
(٩) المستدرك، للنيسابوري، ٣/ ١٢٢.

الامة والحفاظ على الرسالة باعتبارهم امتداداً لها. بالاضافة الى انهم الائمة في تبليغ الفكرة. والشاهدون عليها، ويقتضي ذلك ان يتصدوا لهذا البيان ولهذا العمل الرسالي الذي يستهدف ابتداءً شرح وبيان دستور المسلمين وهو القرآن الكريم.

ومن خلال نظرة علمية منصفة لابد ان يفخر ابناء الاسلام جميعاً بهذا الامتياز الذي توافرت عليه اقطاب هذه المدرسة، انطلاقاً من الحرص على فهم حقائق الشريعة وتفسير القرآن بشكل يبعث على الاطمئنان بعد ان صدرت كل تلك البيانات من هذه السلسلة المطهرة المعصومة التي حظيت بكل تلك الرعاية الالهية والاهتمام المباشر من الرسولﷺ بهم.

وهناك أمر آخر بشأن هذه البيانات الصادرة عنهمعليهم السلام، وهو كيف كان الائمة يجيبون ويبينون للناس، وبعبارة اخرى ما هي مصادر المعرفة لديهمعليهم السلام، لا سيما في تفسير وعلوم القرآن الكريم؟. ويمكن توضيح ذلك من خلال:

١. تلك النصوص التي أشرنا اليها تؤكد بما لا يقبل الشك ان هناك رعاية إلهية، وصناعة ربانية لهذه الاعمدة الناطقة من أهل البيتعليهم السلام، وبهم حفُظت الرسالة، فهم المطهرون الذين لم يشركوا ولم يسجدوا لصنم، ولم يظلموا، بل كانوا أهلا للخطاب الالهي ليستحقوا بذلك المنزلة الخاصة التي يبث فيها رب العزة الالهام والقوة على الكشف ومعرفة الاشياء بحقائقها، وهذا الامر ليس خيالاً بل ان المسلمين جميعاً متفقون على ان الامة لا تخلو من مثل هؤلاء الرجال الذين فتح عليهم بتقواهم وقربهم من الله وتجردهم وتطهرهم، فكيف بالائمة الهداة الذين أشارت اليهم كل تلك النصوص التي أسلفناها.

٢. ما تحملوه عن الرسولﷺ وما تحمله الائمة بعضهم عن البعض، حيث اكدت كثير من الروايات هذا الأسلوب، فكان الامام المعصوم يروي عن الرسولﷺ وعن آبائهعليهم السلام

وقد ملئت كتب الحديث والرواية في امتدادات هذه المدرسة من خلال الكتب الحديثية الكبرى والاصول الاربعمائة.

٣. وهناك مصدر آخر يمكن استشرافه من خلال الروح القرآنية الواضحة في النصوص التي وردت عن الائمةعليهم السلام في أدعيتهم وبعض الزيارات والمناجات المروية عنهم، وفي اجاباتهم على الاسئلة وبياناتهم وخطبهم وغيرها وبتدبر واضح لهذه النصوص المفعمة بالروح القرآنية نجد ان الائمةعليهم السلام استنطقوا القرآن، واستدلوا واستعانوا به في التفسير من خلال (تفسير القرآن بالقرآن)، وهناك أمثلة كثيرة تبين هذا المعنى نشير الى بعض منها: ما روي عن تفسير الامام عليعليه السلام في اثبات اقل مدة للحمل عند المرأة تكون ستة أشهر، بالنظر الى قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [سورة الاحقاف: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾[١٠]، وهذا اللون من التفسير مارسه الرسولصلى الله عليه وآله من قبل في تفسيره للشرك في أحد صوره بانه الظلم، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١١]، هذه القاعدة التفسيرية كانت ملهمة للنصوص التي وردت عن ائمة أهل البيتعليهم السلام.

طبقات المفسرين:

في المبحث الأول تحدثنا عن المكانة التي ميزت أئمة أهل البيت عليهم السلام لتبوء هذه المواقع المؤثرة في المرجعية الفكرية لهذه الأمة، وفي بيان مقاصد القرآن الكريم.

واشرنا كذلك الى مصادر المعرفة لدى الائمةعليهم السلام ولا سيما في مجال تفسير القرآن الكريم.

في هذا المبحث نتحدث عن طبقات المفسرين في مدرسة أهل البيتعليهم السلام،

(١٠) الغدير، للأميني، ٦/ ٩٣، [سورة الاحقاف: ١٥]، [سورة لقمان: ١٤].

(١١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، الطبعة الثانية، ١/ ٨١، [سورة لقمان: ١٣].

ولابد من الاشارة هنا الى ان هذه المدرسة التي أسسها الائمة المعصومون من أهل البيت عليهم السلام امتدت لمساحات واسعة وضمت إليها رموزاً مؤثرين في مختلف الطبقات. وفي فجر الدعوة الاسلامية حيث كان الرسول صلى الله عليه وآله يعلّم المسلمين تفسير القرآن، لذلك فالحديث عن طبقات المفسرين في هذه المدرسة يكشف عن أصالتها وحضورها منذ بدء المسيرة، وقد كانت لمتابعات كل من المرحوم آية الله السيد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة لفنون الإسلام والمرحوم آقا بزرگ الطهراني في كتابه الذريعة، ثمرات مفيدة في تاريخية هذه المدرسة لا سيما في معطياتها التفسيرية.

توسّع علماء أهل السنة في ذكر طبقات المفسرين فذكروا طبقة الصحابة وأخرى للتابعين وثالثة لتابعي التابعين، ثم طبقة أوائل المفسرين مثل ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، وسفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ)، ثم طبقة خامسة للذين نقلوا الاحاديث في تفاسيرهم بحذف الاسانيد، واما الطبقة السادسة فهم المفسرون الذين كتبوا التفسير بعد ظهور العلوم كالنحو والبلاغة وعلم الكلام والفلسفة والفقه وغيرها[١٢].

أما طبقات المفسرين في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فلا حاجة للتوسع فيها بنفس الاسلوب السابق لاسباب منها: ان فترة المعصومين الاثني عشر عليهم السلام امتدت ثلاثة قرون وهذه الفترة كافية لأن يستقبل الاصحاب (اصحاب الائمة) ما سمعوه من المعصومين انفسهم ومن ثم تدوينه. لذلك برزت الاصول الاربعمائة، وهي النصوص التي رواها الاصحاب عن الائمة المعصومين عليهم السلام حتى جاءت الموسوعات الحديثية كما هي في الكتب الأربعة (الكافي، والتهذيب، والاستبصار، ومن لا يحضره الفقيه) وغيرها، واستناداً الى ذلك فلا ضرورة لطبقات أخرى، إلا الذين ألفوا في التفسير من العلماء الاوائل في هذه المدرسة، فأمكن ايجاد طبقة ثانية لهم بعد طبقة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله واصحاب

(١٢) طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، ص٩ - ١٠.

الائمة عليهم السلام الذين رووا عن المعصوم مباشرة.

وما ان ظهرت العلوم وتعددت أمكن ايجاد طبقة ثالثة لمفسري مدرسة أهل البيت في الجوانب المختلفة (الفلسفية والكلامية والفقهية والبلاغية وغيرها).

اذن اختزلت مدرسة أهل البيت للسبب الذي ذكرنا، الطبقات العديدة من المفسرين لدى أهل السنة[١٣].

من رموز مدرسة أهل البيت، التفسيرية والذين استفادوا من الرسول صلى الله عليه وآله في فجر الرسالة الاسلامية يمكن الاشارة الى عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الذي كان من خواص تلاميذ أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، وقد اكثر ابن عباس من الرواية في إمامة الائمة الاثني عشر وبأسمائهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن الصحابة المفسرين في مدرسة أهل البيت جابر بن عبد الله الانصاري (ت٧٤هـ)، وهو من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام كما عده أصحاب السير، وكان منقطعاً لأهل البيت ويذكر مآثرهم في كافة المحافل، وهو الذي زار قبر الامام الحسين عليه السلام في ٢٠ صفر سنة استشهاده، ومنهم أيضاً أُبي بن كعب سيد القراء في هذه المدرسة توفي سنة ٣٢هـ، وهو من مفسري الصحابة كما عده السيوطي، وكان في هذه المدرسة مفسرون قدماء مثل سعيد بن جبير الذي يعتبره قتادة من أعلم التابعين بالتفسير، وقد قتله الحجاج سنة (٦٤هـ) بسبب تشيعه، ومنه ايضاً يحيى بن يعمر التابعي، وهو اول من نقّط القرآن، ويعتبر أحد اعلام الشيعة في علم القرآن، توفي قبل المائة الاولى من الهجرة، ومن قدامى المفسرين في هذه المدرسة ابو صالح ميزان البصري، وهو تلميذ ابن عباس، روى عنه كثيراً محمد بن السائب الكلبي، وهو من الشيعة الثقاة، توفي بعد المائة من الهجرة.

ومنهم ايضاً طاووس بن كيسان ابو عبد الله اليماني، وأخذ التفسير عن ابن عباس، قال فيه ابن تيمية: انه من أعلم

(١٣) القرآن في الاسلام، العلامة محمد حسين الطباطبائي، ص ٥٩ -٦٢.

الناس في التفسير، وكان من أصحاب الامام زين العابدين عليه السلام، ونص كذلك ابن قتيبة على تشيعه، توفي سنة (١٠٦هـ). وكذلك محمد بن السائب بن بشر، كان صاحب تفسير كبير وكان من الشيعة المخصوصين بالامامين الباقر والصادق عليهما السلام، توفي سنة (١٤٦هـ)، وجابر بن يزيد الجعفي امام في الحديث والتفسير وقد اخذهما عن الامام الباقر عليه السلام، وكان من المنقطعين اليه، وله تفسير في القرآن، قال عنه الحافظ العسقلاني في التقريب: انه ضعيف رافضي، وهذه شهادة في تشيعه، ومن السهل اسفاً ان ترمى الاحكام بعواهنها على رموز في هذه المسيرة الاسلامية توفي سنة (١٢٧هـ). ومن قدامى المفسرين في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، السدي الكبير اسماعيل بن عبد الرحمن الكوفي، وكان من اصحاب الامام زين العابدين عليه السلام، وقد نص على تشيعه ابن قتيبة، وروى عنه سفيان الثوري وشعبة، توفي سنة (١٤٥هـ) وكذلك أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار، توفي سنة (١٥٠هـ)، وابو بصير يحيى بن القاسم الاسدي من اصحاب الامامين الباقر والصادق عليهما السلام، توفي سنة (١٤٨هـ)، وعلي بن مهزيار الاهوازي، احد ائمة العلم في الحديث والتفسير، روى عن الامام الرضا عليه السلام وصنف كتاب تفسير القرآن. وكذلك ابن فضال ابو الحسن علي بن الحسين كان في طبقة الكليني صاحب الكافي، وهو من علماء المائة الثالثة. وكذلك محمد بن خالد البرقي، من أصحاب الامام الرضا عليه السلام. وعلي بن ابراهيم القمي، صاحب التفسير المعروف، وهو من مشايخ الكليني. وعلي بن بابويه القمي، والد الشيخ الصدوق، وابن عقدة الحافظ المشهور المتوفى سنة ٣٣٣هـ. والعياش محمد بن مسعود، صاحب التفسير المعروف، وهو من طبقة الكليني، والشيخ فرات بن ابراهيم الكوفي، من علماء عصر الامام الجواد عليه السلام[١٤].

ويمكن الاشارة هنا الى بعض المؤلفات في علوم القرآن الخاصة

(١٤) المصدر نفسه.

بمدرسة أهل البيت عليهم السلام:

١. كتاب التحريف والتعديل لمحمد بن الحسن الصيرفي، من أصحاب الامام الصادق عليه السلام.

٢. كتاب الوجوه والنظائر والناسخ والمنسوخ لدارم بن قبيصة التميمي، من أصحاب الامام الرضا عليه السلام.

٣. كتاب الناسخ والمنسوخ لعبد الله المسمعي، من أصحاب الامام الصادق عليه السلام.

٤. كتاب المتشابه والمحكم، وكتاب ما أنزل في أهل البيت من القرآن، لمحمد بن العباس بن الحجام، من أهل القرن الثالث[١٥].

هذه جولة سريعة في جانب من رموز وعلماء هذه المدرسة التفسيرية، وهناك الكثير من تلك الاعلام البارزة في التاريخ الاسلامي، ويمكن مراجعة كتاب (الذريعة في تصانيف الشيعة) لمؤلفه العالم الفاضل آقا بزرك الطهراني الذي يذكر العديد من المؤلفات في التفسير مع ذكر اصحابها، والتي تكشف عن شمولية وإحاطة علماء تلك المدرسة في مختلف علوم القرآن بفضل ما استفادوه من ائمة اهل البيت عليهم السلام، ويشير ايضاً الى نسبة غير قليلة منهم لتلك العصور المتقدمة في بدايات الرسالة الاسلامية.

من خلال ما تقدم تتضح اصالة وحضور علماء مدرسة أهل البيت التفسيرية منذ الخيوط الاولى لفجر الرسالة الاسلامية وحتى يومنا الحاضر، وستبقى عترة النبي والقرآن الكريم عدلين متلازمين حتى يردا الحوض على رسول الله صلى الله عليه وآله، يوم القيامة، وهذا البعد بمستوييه الغيبي والواقعي يُلهم هذه المدرسة شرعيتها وواقعيتها في توجيه الامة، ولابد للأمة الاسلامية ان تلتزم نهج هذا الامتداد الشرعي وتقتدي به، وما سواه لا يكون إلا تعميقاً لمعطيات مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ولكن التاريخ الاسلامي منذ بداياته أخذ ينتهج في أهم مواقعه المؤثرة أسلوباً تميز بالابتعاد

(١٥) الذريعة الى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني، الطبعة الثانية، ج٢٥ بشكل كامل تقريباً.

عن معطيات هذه المدرسة.

تفسير القرآن بالقرآن:

ما معنى تفسير القرآن بالقرآن، وهل يصح ان يكون منهجاً وطريقاً في الاستنطاق؟. وكيف نتلمس أصالته في العملية التفسيرية؟. وما هي المساحة التي استوعبها في جهود المفسرين؟. وأين هذه القاعدة الرئيسة، والمنهج القرآني الأثري من مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

صحيح ان هذه القاعدة كانت موضع اهتمام كل المفسرين، لا سيما ان هناك روايات كثيرة استخدمت هذا النوع من التفسير، لكنها كانت واسعة جداً في جهود هذه المدرسة وروايات أهل البيت عليهم السلام. وسنكتفي بالقليل منها ونحيل القارئ أو الباحث لمطالعة كتب الحديث في مذهبنا الامامي.

لقد كان للمعلّم الأول رسول الله محمد صلى الله عليه وآله ريادة واضحة في هذا المنهج، فمثلاً فسر صلى الله عليه وآله (الظلم) في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بالشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[16].

ومنذ ذلك الوقت احتلت هذه القاعدة مساحة مميزة من جهود الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، رائد هذه المدرسة، والذي يستهدي بمنطق وطريقة وأسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد استنبط أمير المؤمنين عليه السلام من القرآن الكريم أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، وقد حلّ مشكلة اجتماعية كادت ان تأتي على فهم وتطلع اجتماعي حصل آنذاك ويحصل الكثير منهم على طول مسيرة هذه الأمة. حيث استفاد عليه السلام من التقابل بين آيتين في كتاب الله العزيز هما: ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[17] ولسعة تطبيقات هذه القاعدة عند ائمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام، يمكن التأمل في أسلوب الدعاء والمناجاة وغير ذلك مما روي عنهم عليهم السلام، حيث أن في ذلك عرضاً لمفاهيم استفادوها من القرآن نفسه.

(١٦) انظر الصفحة ٦ من البحث.
(١٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٢٨٥، [سورة الغاشية: ١]، [سورة ابراهيم: ٥٠].

ومن أمثلة ذلك الدعاء المروي عن أمير المؤمنين والمعروف بدعاء كميل، فهو مليء بالمعطيات القرآنية المستوحاة من الآيات نفسها. ويلمس ذلك أيضاً في نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام.

وقد جرى على هذه القاعدة مفسرون أوائل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، من أصحاب وتابعين كأبن عباس رضي الله عنه الذي روي عنه الكثير من تفسير القرآن بالقرآن، كما روي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أحد أقطاب هذه المدرسة ومن التابعين، في معنى الغاشية في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [سورة الغاشية: ١] بانها النار تغشى وجوه الكفار وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [سورة ابراهيم: ٥٠].

ويصف الامام علي عليه السلام القرآن بانه: (ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض)[١٨].

وقد يسأل السائل: ما هي الحاجة التي دعت لهذا التفسير ولهذه الطريقة؟. ولعلّ الأساس في هذه الطريقة هو ما أشار اليه القرآن نفسه. فهنالك من الآيات المحكمات هن أم الكتاب. ترجع إليها المتشابهات لأجل بيانها، فلا يمكنك تفسير قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، من غير الرجوع الى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [سورة الشورى: ١١]، وبدون هذا الرجوع هناك أكثر من محذور كالوقوع في التجسيم والتشبيه للباري جل وعلا.

ومثلما صرح القرآن الكريم بالرجوع الى المتشابه، نرى التأكيدات الكثيرة لذلك في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، والتطبيقات الواسعة لتلك المعاني، كما حصل في نفي رؤية الله تعالى بالاستناد لقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [سورة الانعام: ١٠٣]، فكما ان قاعدة المحكم والمتشابه في القرآن تقتضي هذا النوع من التفسير، كذلك فتطبيقات هذه القاعدة واضحة وملموسة بشدة في ما روى عن

(١٨) شرح نهج البلاغة، محمد عبده، ج٢ الخطبة: ١٢٣.

أهل البيت عليهم السلام.

كذلك مفهوم النسخ الذي نهى عنه أمير المؤمنين عليه السلام أحد المسلمين آنذاك بعد ان تصدى الأخير للتفسير من غير أن يعلم الناسخ من المنسوخ، فكان النهي الصريح للإمام عليه السلام إذ قال له: (لقد هلكت وأهلكت). والأمر عينه في أساليب البيان التي وردت في القرآن الكريم من قبيل العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمبين، فمقابلة هذه الموارد من غير الحاجة الى نصوص من خارج القرآن يمكن ان تساعد على فهم دقيق لمعاني الآيات المباركة، وهذا مقتضى آخر لهذا المنهج القرآني (تفسير القرآن بالقرآن).

لقد دعا القرآن الكريم الى التدبر والتأمل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[19][سورة محمد: ٢٤]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢]، فهنا تبرز للعيان مسألتان:

١. اقفال القلوب الذي هو وراء عدم التدبر أو عدم القدرة على التدبر في المعاني القرآنية، وفي صدر هذه المعطيات التفسيرية ومن خلال مقابلة الآيات ببعضها البعض مع ضمان عدم الاختلاف بين آيات الكتاب المنزل من الله سبحانه، يدفع الى الامام وبثقة لتطبيق هذا النوع من المقابلات بشكل واسع بين آيات القرآن من غير حاجة أولية للخروج الى نصوص من خارج القرآن.

٢. التدبر في القرآن الذي هو بذاته منهج قرآني يقف وراء عملية تفسير القرآن بالقرآن، وكأن هذا اللون من التفسير يأتي ضمن الأوامر القرآنية باتجاه استخدام هذه القواعد لتفسير القرآن ومن نافلة القول ان هذه القاعدة مقدمة على غيرها من القواعد.

ان هذا التفسير بالقرآن الكريم لم يبوّب كغيره من روايات التفسير في بداية تدوين الحديث في القرن الثاني الهجري منفصلاً، بل كان قد

(١٩) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ابن حزم الاندلسي، ص٥.

دوّن ضمن أبواب الحديث ما دام قد روي، وما لبث ان اتسع فتبلور منهجاً وطريقة وقاعدة استعملها المفسرون في استنطاق الآيات القرآنية ببعضها كما ان هذه القاعدة في تفسير القرآن بالقرآن تدخل في تأسيس المنهج الموضوعي في تفسير القرآن، إذ أن الأخير يعتمد الى حد كبير على مقابلة الآيات بعضها مع بعض في الموضوع الواحد، ومن يرد ان ينفع من ذلك ويفسر القرآن بالقرآن فهو بحاجة لحفظ أكثر نسبة من السور والآيات القرآنية ليكون أكثر استحضاراً. وقد ندب لذلك ائمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام في الأمر بحفظ القرآن وتدبر آياته.

مكانة العقل لدى مدرسة أهل البيت التفسيرية.

وما هي الثمرة العلمية وراء إبراز مثل هذه المكانة؟.

صحيح ان التفسير في نشأته الأولى لم تتوهج فيه المناحي العقلية بشكل كاف، وكان المأثور هو الغالب على كل المحاولات التفسيرية الأولى، إلا بحدود التأمل والتدبر ومقابلة النصوص القرآنية أحياناً.

لكن اهتمت هذه المدرسة بالعقل اهتماماً كثيراً، بينما شهد تاريخنا الإسلامي حرباً شعواء على المنهج العقلي راح ضحيته الكثير من المفكرين وعمالقة الفكر الاسلامي. ولكثرة ما روي عن ائمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام في هذا الباب، نرى ان كتب الحديث عن الإمامية اشتملت على مساحات كبيرة في هذا المجال، وهو حقل الحث على العلم والعقل والتحذير من أخطار الابتعاد عن معطيات هذا البعد العقلي في التفكير، حتى عدّ أصلاً من أربعة أصول في مصادر التشريع الإسلامي إلى جانب القرآن الكريم والسنة المشرفة والاجماع، ان كتاب الكافي لثقة الإسلام الشيخ الكليني رضي الله عنه وهو من أبرز الكتب الحديثية والروائية المعتبرة عند الإمامية، عقد في مطلع أصول الكافي (كتاب العقل والجهل) وآخر (كتاب فضل العلم)، وأورد الاحاديث والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وفي هذا المجال نذكر شذرات بسيطة ونحيل القارئ على هذه الكتب الحديثية التي تضمنت تلك الاشادة بالعقل والذم على من لا يتمسك به.

قال الامام الصادق عليه السلام: (من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة)[٢٠]. وعن الامام الرضا عليه السلام: (صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله)[٢١]، وقال الامام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: (يا هشام ان الله بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة الزمر: ١٧ -١٨]، وقال عليه السلام: (يا هشام ثم خوّف الذين لا يعقلون عقابه، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢٢].

وروي في الكافي حول التفكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: (التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي الماشي في الظلمات بالنور يحس التخلص وقلة التربص)[٢٣].

وعن فضل العلم روي عن الامام الباقر عليه السلام : (عالم ينتفع بعمله أفضل من ألف عابد)[٢٤]، وعن أبيه الباقر عليه السلام: (الكمال كل الكمال التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وتقدير المعيشة)[٢٥]. وعنه عليه السلام انه أوضح حق الله على العباد، فقال عليه السلام : (ان يقولوا ما يعلمون ويقفوا عندما لا يعلمون)[٢٦].

انّ هذا الاتجاه في إبراز دور العقل والعلم والفهم في حياة الإنسان إنّما سلكته هذه المدرسة المباركة في ضوء ما حثّ عليه القرآن الكريم من التدبر والتأمل. وهناك مئات الآيات التي وردت فيها مصطلحات وكلمات العلم والمعرفة والعقل ونظائرها. قال تعالى:

(٢٠) الأصول عن الكافي، ابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، كتاب العقل والجهل، الطبعة الثالثة، ١/ ١١.
(٢١) المصدر السابق نفسه.
(٢٢) المصدر السابق نفسه، ١/ ١٤، [سورة الصافات: ١٣٦ -١٣٨].
(٢٣) المصدر السابق نفسه، ١/ ٢٨.
(٢٤) المصدر السابق نفسه، ١/ ٢٣.
(٢٥) المصدر السابق نفسه، ١/ ٣٢.
(٢٦) المصدر السابق نفسه، ١/ ٤٣.

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[سورة المجادلة: ١١].

ومنطلق ذلك هو توفير الاداة السليمة بيد الانسان ليحث الخطى ويجدّ السير نحو المطلق وهو الله سبحانه وتعالى، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[سورة الانشقاق: ٦]. ولا يرضى لعباده ان ينشغلوا عن الحق ويلهون بظاهر هذه الحياة، قال تعالى ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [سورة الروم: ٧]، ويشير العلامة الطباطبائي الى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك: ١٠] بقوله: (أريد بالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون إليه من الحق بتعقله والاهتداء العقلي إلى انه حق ومن الواجب ان يخضع الانسان للحق)[٢٧]، ومما تفيده الآية المباركة هذه هو وجوب تعقل الحق، وإلا كان سبباً مباشراً لدخول جهنم.

فالعقل والاستخدام المنطقي السليم لأدواته مقتضى مهم لبلوغ المطالب التي بها نجاة الانسان والمجتمع في الآخرة، وتحقيق السعادة لهم في الدنيا. وفي ضوء ما تقدم لم تبق أية غرابة لظهور المنهج العقلي وأنماط التفسير بالرأي لدى هذه المدرسة التي كانت السبّاقة في هذا الميدان، لكن هذه المدرسة انطلقت بالتفسير بالرأي في ضوء المحددات الشرعية لهذا التفسير، ولم يكن ذلك رغبة ذاتية لدى هذه المدرسة، وحتى لا تبقى أية ضبابية على هذا الاتجاه العقلي في مدرسة أهل البيت، فان ما روي عن رسول الله ﷺ: (من فسّر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار)[٢٨]، يمكن حمل النص -كما ذكر ذلك علماء القرآن- انه نهي عن القول في مشكل القرآن ومتشابهه، أو أريد بالرأي الذي يغلب على صاحبه من غير دليل يقوم عليه، أو يحمل النهي على من يقول بظاهر العربية دون ان يرجع الى المأثور، ولا يمكن

(٢٧) تفسير الميزان، العلامة محمد حسين الطباطبائي، ١٩/ ٣٥٣.

(٢٨) الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى الترمذي، ٥/ ٢٩٨.

أن يشمل هذا النهي من يفسر القرآن بالرأي ويستعين بالماثور، وأدوات التفسير الأخرى من قبيل اللغة العربية وعلومها وعلوم القرآن والتاريخ والفقه وأصوله وعلم العقائد وغيرها التي ذكرت شروطاً للمفسرين على ان الا تكون نتائج هذا التفسير بالرأي مخالفة لحقائق الشريعة.

من جهة أخرى تعتقد الامامية بأنه يجب على العاقل بحكم عقله تحصيل العلم والمعرفة بصانعه والاعتقاد بوحدانيته في الألوهية، وعدم اتخاذ شريك له في الربوبية واليقين، بأنّه المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة والايجاد والاعدام، وان الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً ولا يفعل ما يستقبحه العقل السليم، اذ نعتقد بالتحسين والتقبيح العقليين، لكن العقل هنا في الوقت نفسه ليس حاكماً في قبال الله سبحانه وتعالى ولكن العقل لديه القابلية لأدراك الاحكام الشرعية من غير طريق النقل. وخلاصة الأمر في باب الاعتقاد ان الواجب شرعاً في أصول الدين هو الاقتناع.

وفي هذا السياق نشير الى ان مدرسة أهل البيت عليهم السلام التفسيرية لم تغلق باب الاجتهاد، كما انسد لدى الآخرين، فبرزت مشاكل حقيقية عجزوا عنها، فعادوا الى الاجتهاد ثانية، وهذا الاجتهاد في حقيقته هو عملية ابداعية رائعة فيها التأمل والامعان والموازنة وتحكيم الأولويات وتطبيق حشد من القواعد واستنطاق النصوص، وهذا استخدام صحيح للعقل وأدواته السليمة. فإذا لم يعترض أحد على المجتهد الفقيه وهو يؤدي دوره الصحيح والمثمر، لماذا يتردد البعض أمام التفسير العقلي حين لا يتنكب قواعد التفسير ويلتزم بشروطه.

وأخيراً، فان من يريد ان يجمد على النص ولا يُعمل العقل وفهم أدواته، كيف يمكنه ان يجيب على تيار الأسئلة والتحديات القائمة اليوم؟. في حين ان النص القرآني فيه من القدرة الذاتية ما تمكنه من الاجابة على كافة أسئلة واحتياجات الانسان المعاصر ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الاحزاب: ٧٢] قيل عن (الامانة) هي العقل، وقيل الارادة الاختيارية في الانسان، وقيل غير ذلك.

عرض السنة على القرآن

ما معنى هذه القاعدة في التفسير، ولماذا خالفها الأخباريون والمحدثون الى حد كبير؟. وما هي أهم مبررات وحجة هذه القاعدة في التفسير، وكيف تجلت في ما روي عن النبي ﷺ وأئمة الهدى من أهل بيته عليهم السلام.

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام انه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتن، قلت وما المخرج منها قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل[٢٩]، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة).

كما روي عن النبي ﷺ قال: (ان الحديث سيفشو عني فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو عني وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس عني)[٣٠] من هذين النصين يمكن ان نستفيد أمرين أحدهما:

١. ان القرآن الكريم يبقى محفوظاً بأرادة إلهية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩] الى جانب شموليته وإحاطته بكل الحاجات وكونه جامعاً ولا يمكن ان تلتبس الاهواء في تنزيله، وبالتالي فهو المرجع.

٢. لقد أنبأنا رسول الله ﷺ ان الحديث سيناله بعد وفاته الكثير من العوامل المؤثرة في ضعفه أو وضعه، وهذا مبرر كاف لضرورة العرض على القرآن الكريم، وهذه القاعدة هي التي أمر بها رسول الله ﷺ صراحة ومن غير غموض.

هذه المعاني جاءت بشكل متواتر في طرق أهل البيت عليهم السلام منها ما روي عن الامام الصادق قال خطب النبي ﷺ فقال: (أيّها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله).

(٢٩) الاصول من الكافي، الكليني، ٢/ ٥٩٩.

(٣٠) المصدر السابق نفسه، ١/ ٦٩.

وقد ذكر الفيض الكاشاني في تفسير الصافي عن الامام الصادق(عليه السلام)، (كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)[٣١].

ولكن هذه القاعدة واجهت معارضة واسعة من أهل الرواية والحديث الذين اعتمدوا الاخبار وهم كثر في المدرستين السنية والشيعية، فمن الشيعة الاخباريون مثلاً، يقول السيد الخوئي: وقد اجمع علماء الاصول عند الامامية على حجية ظواهر القرآن خلا الاخباريين الذين عولوا على الاخبار والاحاديث.

ولدى أهل السنة نذكر مثالاً لذلك ابن حزم (ت ٤٥٧هـ) الذي يقول: لا سبيل الى وجود خبر صحيح مخالف لما في القرآن أصلاً، وكل خبر شريعة فهو اما مضاف الى ما في القرآن ومعطوف عليه ومفسر لجملته، واما مستثنى منه مبين لجملته ولا سبيل الى وجه ثالث[٣٢]،

مفسراً ان هذه القاعدة تخالف قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[سورة الحشر: ٧] وقوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[سورة النساء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة النساء: ١٠٥]. وكذلك ما روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): (ألا وان ما حرم رسول الله(صلى الله عليه وآله) مثل ما حرم الله).

وقد فات هؤلاء ان قاعدة عرض السنة على القرآن انما تجري في الاحاديث والروايات عن النبي وأهل بيته المعصومين التي لم تكن متواترة او غير محفوفة بقرائن تفيد قطعاً انها صادرة عن المعصوم. ولا يمكن أن يكون حديثاً أو خبراً أو رواية عن النبي وأهل بيته صحيحة تخالف النص القرآني.

من جهة أخرى ان علماء الدراية ونقد الحديث اعتبروا (عرض السنة على القرآن) من أسس نقد الحديث وان مخالفتها لصريح القرآن من علامات الوضع في المتن أي متون الاحاديث والروايات.

(٣١) المصدر السابق نفسه/ ١/ ٦٩.
(٣٢) الاحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الاندلسي، ٢/ ١٩٨.

ان هذه القاعدة من المقاييس الضروية لأي مفسر يتناول النصوص القرآنية مستفيداً من الروايات والاحاديث.

ولقد واجه المعارضون لهذه القاعدة إحباطات واسعة حينما لم يجدوا وجهاً لحمل الرواية أو تفسيرها بما ينسجم وصريح القرآن الكريم، وهنا برزت اهتمامات علماء الحديث الذين وفروا ادوات توثيق المتون فتوقفوا عن تأييد الكثير من الروايات التي لم تؤيدها المعطيات القرآنية. وفي هذا السياق يتجلى الموقف العلمي الدقيق من (الاسرائيليات) التي عمد لوضعها في الحديث أهل الكتاب. كذلك جماعات الوضاعين للحديث وحتى بعض المتصوفة الذين كانوا يرون مصلحة في توسعة وزيادة تصوير العقاب أو الثواب طلباً لتشجيع عامة الناس نحو العمل الحسن أو تنفيرهم عن السيئات. وهناك أمثلة كثيرة في تطبيق هذه القاعدة فهل يعقل ان النبي موسى عليه السلام لا يعرف ربه مثلاً!. بل ان هذه الرواية تمس مسلّمات الكتاب والسنة مثل عصمة الانبياء والملائكة، فقد جاء في الرواية ان موسى عليه السلام لما سأل ربه النظر إليه وعد الله ان يقعد في موضع ثم أمر الملائكة تمر عليه موكباً موكباً بالرعد والبرق والريح والصواعق، فكلما مر به موكب من المواكب ارتعدت فرائصه فيرفع رأسه فيسأل أيكم ربي؟. فيجاب هو آتٍ وقد سألت عظيماً يا ابن عمران[٣٣].

إنّ هذه الرواية تمس العصمة وتخدش في مسألة التوحيد أيضاً، حيث تصور ان الله آتٍ وتحكي مادية هذا المجيء، فلو عرضنا هذه الرواية على القرآن الكريم لوجدنا آيات التوحيد والعصمة تتناقض تماماً معها، فهذه القاعدة هي السبيل لتمييز هذه الروايات صحيحها عن عقيمها.

وفي جانب القصة القرآنية (اي التي وردت في القرآن الكريم) وجدنا ان جمهورا من المفسرين أفرطوا في تحكيم هذه الروايات الواردة من طرق مختلفة

(٣٣) تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عياش، [سورة الاعراف: ١٤٣].

واعتبروها متصلة بالقصة القرآنية بياناً وتفصيلاً لما جاء في القرآن، وقد امتلأت بها كتب المغازي والتفاسير وكتب السير والتاريخ.

ان من يتصدى للتفسير سيواجه معضلة تفسير الاحاديث والروايات الى جانب تفسير النص القرآني، ولابد هنا من إمامة للقرآن تعرض عليه كافة النصوص الأخرى، وهذه الامامة يفسّرُ بعضها مبدأ عرض السنة على القرآن، وبدونها أي هذه الامامة سوف لا يتمكن المفسر من معالجة الروايات ان جاءت مخالفة لصريح القرآن الكريم.

الروايات المؤكدة لهذه القاعدة والتي جاءت من طرق ائمة أهل البيت عليهم السلام بشكل يقرب من التواتر انما تكشف عن اصالة مدرسة أهل البيت عليهم السلام في التفسير ومدى تمسكها بالمنهج الذي اختطه الرسول صلى الله عليه وآله.

وقد يذهب البعض الى ان استخدام هذه القاعدة لا ينسجم مع نهي الرسول صلى الله عليه وآله عن التفسير بالرأي، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار) والحقيقة ان هذا النهي انما يخص الرأي المذموم. بينما المفسر الذي يستخدم أدوات التفسير الصحيحة ولا يحمل القرآن رأيه الخاص فهو تفسير محمود وليس مذموماً، كذلك التأشير على ضعف رواية ما بعد عرضها على القرآن لا يعدّ ذلك تفسيراً بالرأي وانما تفسير بالقرآن، وعليه فهذه القاعدة تعين الى حد كبير المفسرين او من يريد التأمل في الموروث الروائي الواسع والذي امتلئت به كتب الرواية والتفسير بالمأثور.